التمثلات السوسيوثقافية في رواية: "مذنبون لون دمهم في كفي" للحبيب السائح.

د. كاملة مولاي
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوصوف؛ ميلة؛ الجزائر.
البريد: moulaikamla3000@hotmail.com

الملخص: شهدت الرواية الجزائرية تحولات عميقة وتغيرات ملحوظة متأثرة بالواقع المأساوي فترة التسعينيات، مما انعكس جليا على النصوص الروائية بأدوات فنية متفاوتة من حيث النضج والتطور الفني. وأما على مستوى المضمون فانفتح الخطاب الروائي الجزائري على واقع المحنة ونقل لنا أهم انعكاساتها، ومن بين الروائيين الذين خاضوا تجربة المحنة "الحبيب السائح" في أحد أعماله السردية "مذنبون لون دمهم في كفي" وفيها أبان مظاهر العنف والإرهاب والتطرف وكشف عن شخصية المتطرف من خلال الكشف عن بنيته الشكلية والفكرية وكيف ساهمت الإيديولوجية في انفتاح وتشعب أحداث الرواية.

الكلمات المفتاحية: الرواية الجزائرية؛ أدب المحنة؛ اللباس؛ الهيئة؛ الإيديولوجية؛ اللهجة.

Abstract: Algerian novel witnessed profound transformations and changes markedly influenced by the tragic reality of the nineties, which was reflected clearly Ai-fiction texts technical instruments of varying terms of maturity and technical sophistication. As for the content of the level opened up the speech Algerian novelist on the reality of the plight and moved us the most important implications, among novelists who fought ordeal experience "HBIB SAYEH " in one of its narrative, "are guilty of the color of their blood in my hand," and which has shown manifestations of violence, terrorism and extremism, and the detection of extreme character through disclosure of the structure of formal and intellectual ideology and how it contributed to the openness and complexity of the events of the novel.

Key words: Algerian novel; literature ordeal; dress; body; ideology; rhetoric.

مقدمة:

تعد الرواية ديوان العرب، باعتبارها الجنس الأدبي الأرحب على امتلاك آليات التغيير، والوعاء الفني الأكثر استحضارا للمظاهر والتحولات الاجتماعية وفق رسالة فكرية أدبية وجمالية سردية. وقد أصبحت الإيديولوجية رهانا من رهانات الرواية العربية عامة، والجزائرية خاصة، لأنها تحمل مضامين سوسيوثقافية ودينية واجتماعية وسياسية، فأضحت بذلك الإيديولوجية قاسما مشتركا ومنهلا رئيسيا في الكتابة الإبداعية.

وقد مثلت رواية "مذنبون لون دمهم في كفي" للحبيب السائح منعرجا في الإبداع، إذ وجدت من العشرية السوداء مادة دسمة لكشف العنف والتطرف الديني وفساد السلطة. استطاع الروائي مساءلة الظاهرة بتوظيف شخصية المتطرف بصورة مكثفة ورؤيا واضحة.

وقد كان البعد الإيديولوجي محركا لدواليب العنف والإجرام. وكانت لغة الروائي هادئة، فيها من الجمالية والأسلوب الرصين والدقة وحسن التصوير، ومطابقة، وعلاقة ضمنية بين الواقع الاجتماعي، والواقع النصي.

النص:

1 -اللباس والهيئة:

إن المتفحص في النصوص الروائية – وبخاصة – التي تناولت ظاهرة التطرف الديني يجد رواية الكتاب لصورة المتطرف تكاد تكون متقاربة، نظرا لأنهم عايشوا فترة الأزمة التي كانت مزيجا من الألم والاستبداد والغربة...، فارتسمت في أذهانهم أفكار مختلفة عن هذه الشخصية إلا أن الفارق بينها محكوم بإيديولوجية كل كاتب على حدة، لغته المميزة ورؤيته الخاصة، ف" العنصر الأساسي المتحكم في تصنيف الروايتين لن يكون هو الجانب الإبداعي، ولكن هو الموقف السياسي الذي تعكسه أعمالهم، وهم يعاملون كإيديولوجيين في المقام

الأول". (حميد لحميداني، 1990: 102) وللتعرف أكثر على هذه الشخصية وكشف مكوناتها، يجدر البحث في طريقة تقديم الكاتب لها، ورسم معالمها وفق طريقته الخاصة، لا والتي قد تظهر جليا من خلال تقنية السرد إما عن طريق الراوي عن طريق حوار الشخوص وتفاعلاتهم، بحيث تعرض الشخصية ذاتها بذاتها.

من هذا المنطلق آثرت الوقوف عندها بدءا بالمظهر واللباس باعتبارهما يطابقان الصورة الشكلية ويوضحان ملامحها. ولمعالجة ذلك حاول الروائي التركيز على تقنية الوصف المادي ليقرب للمتلقي هذه الشخصية بكل مواصفاتها، متتبعا حالاتها النفسية، فرصد سلوكياتها وأفعالها، وصفاتها المميزة، فهو بذلك يقوم بدراسة "الشخصية من الداخل ويركز الاهتمام على الجانب النفسي وما يرافقه من مشاعر وعواطف وأحاسيس واتجاهات تفكير يقودها للجانب الخارجي" (علي منصوري، 2008 -2009: 185).

وعلى إثر هذا نتداخل مع التجربة، نحاكي الشخصية ونختبر أفكارها وهذا ما جسدته رواية الحبيب السايح "مذنبون لون دمهم في كفي"، ومن الملاحظ أن رواية الأزمة صورت المتطرف الديني، وتعمقت في وصف ملامحه شكلا ومضمونا، وتعد رواية "مذنبون لون دمهم في كفي" من بين النماذج الروائية التي قدمت صورة واضحة عن ملامح المتطرف، حيث أنه أشهر اختلافه وتباينه عن البقية ليس مظهرا فحسب بل سلوكا وفكرا أيضا، وهو بذلك يعلن عن واقع جديد اقترب من الظهور للعلن، ليمحو ما كان سائدا قبله في طريقة لباسه وفكره وسلوكه. متخذا الماجد منابر للإعلان ذلك حيث يقول الروائي الحبيب السائح على لسان الراوي أحمد: "لكأني مازلت أسمع رجرجة صوت عليان في الدرس الذي ألقاه في المسجد الجامع قائلا: بلباسك تتميز وبلباسك تشهر لدينك راية، فليلبس كل منكم أهله ما يرضي ربه، ألا فاحرقوا عنكم لباس الجاهلية" (الحبيب السائح، 2008: 189، 190).

أراد المتطرفون رسم هيئة مشتركة موحدة، حتى يعتقد الناس أنهم مسلمون متتبعون على ما جاء به اللف فهم يعتقدون أنهم يتبعون نهج الدين" بلحاهم الكثة ورؤوسهم المحلقة، وعيونهم المكحلة"(ياسمينة خضراء، 2012: 77).

وعلى هذا يقودنا الحبيب السائح في روايته كيف صار موظفوا أسلاك الدولة " يلتحقون بأعمالهم في قمصان ونعال و يضعون على روسهم عراقيات بيضاء أو كوفيات سوداء وبيضاء أو حمراء مطلقين اللحي، وصارت الموظفات يرتدين حجابا خشنا شاعت عنه تسمية الشادور، ثم قيل لي: إن اللباسين علامة على الالتزام بأسلوب حياة مغايرة للنمطين التقليدي والأوروبي السائدين" (الحبيب السائح، 2008: 77). لقد شكل هذا المظهر هوية المتطرف التي تبناها من أقطار مختلفة (أفغانستان، السعودية، أمريكا...)، كما شكلت تناقضات بين هوياتهم ومبادئهم.

2 -البنية الفكرية:

عملت اللغة الروائية جاهدة من أجل التعبير بشكل يتناسب ويحاكي فكر الجماعة المتطرفة، بعبارات وألفاظ يستسقيها الراوي من الواقع المعيش، حيث إن لغة وأسلوب المتطرف متميزان، لأن المتطرف يطمح لنشر فكرته وتحقيق أهدافه إثبات وجوده. استعرض الراوي في متنه الأسلوب الذي انتهجه المتطرفون في معاملاتهم إنه أسلوب يدعو للتحريض، بلغة تحمل دلالات جهاد وعنف، يقول الراوي أثناء نقله لكلام الشيخ لحول وجماعته، مستخدمين مكبرات الصوت:" يقول لكم الشيخ الأزرق انهضوا إلى الفريضة الغائبة اليوم، اليوم، لا غدا ولا بعد"(الحبيب السايح، 2008: 123). ويستعملون كلمات مشحونة بالطاقة الدينية، في قوله:" اللّه! اللّه ! نريد دولة كما أرادها اللّه ! سنقيم دولة اللّه ! سنحكم بما أنزل اللّه"(الحبيب السايح، 2008: 123).

فالدعوة – هاهنا– باسم الجهاد واللغة باسم الدين والهدف مناقض لذلك تماما، لأنهم يفعلون ما تسول لهم أنفسهم، فتحول الذي تحت أيديهم:" من نظام التحريم والتحليل، أو من وازع يزع الناس بعضهم إلى مؤسسة لإطلاق الوعد والوعيد والتهديد، وإلى إستراتيجية قاتلة تنتهك كل قيم التواصل والتعارف والتراحم والتكافل"(علي حرب، 2010: 51، 52).

3 - لهجة التحريض:

من أجل أن يحقق المتطرف مبتغاه، راح يمشي بخطى الشيطان ماسكا بالنظام لخلخلته، وضرب القيم الفكرية عن طريق الخطابات السياسية والدينية،

وبذلك غدت رواية الحبيب السايح" حقلا تزرع فيه الإيديولوجيات المختلفة، ووعاءا يحوي المؤسسات الدينية المتباينة لتباين المعتقدات والأنساق". (سماح بن خروف، 2011 -2012: 69).

وفي الخطاب الروائي الذين بين يدينا، يبرز لنا الفكر الإيديولوجي، الذي تمثل في محاولة المتطرف احتواء العقول وشحنها بما يتواءم أو ينطبق مع رؤاه الخاصة، وهذا ما ظهر في المتن، فبلغة فنية راقية وفق بناء سردي، حاول الكاتب أن ينقل إلينا حقيقة الفكر المتطرف من خلال لهجة التحريض المستعملة، إذ ذاعت" عبر مكبرات الصوت في الشوارع وفي أعالي المنارات وعلى أعمدة الكهرباء، والأماكن التي كان البلاغ قد نشر فيها قبل ساعات، ثم حملته الجموع الهائجة في حناجرها رافعين ما كان يوما رفعه المختصمون في الفتنة الكبرى، هاتفين بلسان واحد: لا دولة إلا دولة الإيمان تسقط دولة الطغيان".(الحبيب السايح، 2008: 123).

كان المتطرفون يحملون شعارات تدين الناس الأبرياء، وترفض الفكر الذي لا يتواءم مع ما يرمون إليه من مخططات تهز الكيان من أفراد ومجتمع وهوية، وقد قام الكاتب بفضح أساليب التحريض، وهو يزخر بالنماذج.

4 - سياسة القوة والعنف:

وضعنا الكاتب أمام شخصية المتطرف وصور لنا أفعال الظلم والطغيان فبدت الرواية محملة بمقاطع مثقلة بدلالات العنف، هذا العنف الذي خلق مأساة الشعب الجزائري، يبدو لأول وهلة أن الرواية خيالية نظرا لأحداثها الغريبة، ولكن للأسف أنها حقيقة مرة صور الكاتب شخصياتها وأحداثها، إنها صورة لواقع اجتماعي، هناك تمازج بين الخيال والواقع، حقيقة ممارسات العنف وتخييل الأزمة والأمكنة، وبهذا إن الكاتب لا يقدم "صورة واحدة للعنف، بل صورا متعددة تتناوب في ظهورها على رقعة المتن الروائي لتشكل في مجموعها لوحة مأساوية واحدة للوطن الجريح"(عامر مخلوف، 2000: 87).

الرحمة غابت من قلوب هؤلاء المتطرفين فنالوا من الكبير والصغير، تحولت خطاباتهم المحرضة إلى أفعال دنيئة الأطفال، النساء والرجال وقد منعوا من

أداء الصلاة في بعض المساجد، وهذا ما نقله لنا الكاتب إذ منعت" صلاة الصبح جماعة في أكثر من مسجد ومصلى"(الحبيب السايح، 2008: 191)، ونظرا لأن الشعب معزول خائف من هؤلاء، بالفعل لم يتوجهوا إلى المساجد، لأن هنالك وحوشا بانتظارهم لممارسة العنف بشتى أنواعه.

ومن أبشع الصور صورة العسكري الذي أحرق أمام الناس ورغم صراخه لم تأخذهم به رأفة ولا شفقة، إن قلوبهم متحجرة وكأنهم ليسوا بشرا فما ذنب العسكري "الذي قيده لحول من يديه ورجليه بسلك ورش بالبنزين كامل جسمه في صمت فصرخ: اقتلوني بالرصاص ! اذبحوني ! ثم أشعل فيه النار وأجبرنا على متابعة الإحراق الذي التهم كل شيء أثر صياح رجل الأمن لتفوح بعد ذلك رائحة اللحم البشري المحترق" (الحبيب السايح، 2008: 64). من خلال هذا التدقيق في الوصف نلاحظ كيف أن أبشع طرق القتل مورست، وساد الشر والظلم والجريمة، يا لها من مشاهد بشعة نابعة من قلوب بشعة.

5 - تضارب الأيديولوجيات:

تعد السياسة محورا من المحاور الهامة في الأدب الجزائري نظرا لما تشكله من حوافز للكتابة، كما أنها بعد جمالي وفكري تعتمد عليه الرواية الجزائرية. وحضورها يختلف من روائي لآخر، لأن التفاوت محسوم في تقنيات الكتابة بين الروائيين، إضافة إلى درجات الاختلاف في الوعي ومدى التأثر بالمواقف السياسية ومحظوراتها.

عمد الروائي إلى تتبع الجهاز السلطوي مركزا على شخوصه المحورية، مستحضرا الشخوص المتطرفة، كاشفا جانب الفساد وسلوكيات النظام السياسي. وقد برز من بداية الرواية قدرة الروائي السردية في تحريك الشخوص واختيار الأماكن المستلهمة من الواقع ضمن خطية زمنية تسير عليها أحداث الرواية.

وكما أن إنسان اليوم – خالقا أو متذوقا – يمكن أن يعرف بأنه كائن سياسي له إيديولوجيته الخاصة، أو على الأقل موقفه الواعي أو اللاواعي الذي يعبر عن انتمائه الفكري، وبالتالي عن رؤيته السياسية فكذلك الحال بالنسبة للرواية

المغاربية فقد جعلت من الموقف السياسي أومن الأفكار السياسية المطروحة إحدى اهتماماتها الأصلية أو البارزة، وبالتالي أصبحت الرؤية السياسية إحدى سمات الفن المعاصر والإنسان المغاربي(عبد الوهاب بوشليخة، 2003 -2004: 129).

من هنا نجزم بأن محو السياسة هو إضافة جمالية اعتمدها الروائيون العرب عامة والجزائريون خاصة في خطاباتهم، وذلك من أجل كسر الحاجز بين الروائي والمتلقي، إن هذا الكسر يجعل المتلقي حاضرا ومشاركا فعالا ولا ينسى الروائي نفسه بل يمزج عناصر السرد وفق ما يمليه عليه الواقع وطريقة تفكيره سواء كان فكره يتنافى مع إيديولوجية المتلقي أم لا.

رواية" مذنبون لون دمهم في كفي " هي رواية تعبر عن حقبة زمنية مريرة عاشها الشعب الجزائري، وفي خضم أحداث وتفاعل شخصياتها وتضارب مصالح، الروائي يكشف بطريقة أو بأخرى إيديولوجيته الرافضة للعنف وأشكاله، إن الروائي له موقف سياسي مستور لأول وهلة عندما تقرأ الرواية، لكنه مكشوف بمجرد إعادة قراءتها، إنه يدين التسلط والدم المهدور، وتتميز تجربة الحبيب السائح بامتلاك حرية مواجهة الإشكالية السياسية بجرأة وعنف وصياغة الموقف النقدي المعارض للسلطة، والمدين لموقفها إزاء الأحداث التي كانت بشكل أو بآخر سببا فيها بأسلوب مشحون بالتحدي.

وقد شكل الدين من البداية إلى النهاية عنصرا فعالا في تحقيق تحولات في الفكر الذي يحكم المجتمع عقائديا أو سياسيا أو اجتماعيا أو ثقافيا. إنه الحلقة الواصلة بين جميع التيارات، السلطة ومعاديها والشعب البريء وفي نفس الوقت لا ننسى الروائي فهو الآخر جزء لا يتجزأ من معادلة حكمتها خيوط الدين والسياسة وعايشت الواقع بكل تحولاته.

6 -النسق الإيديولوجي في النص الروائي:

يحوي نص الحبيب السائح إيديولوجيات متضادة مثلتها فئات اختلفت في الأفكار، فجسدت شخصيات ذات منحى متطرف، وأخرى ذات منحى سلطوي وأخرى ذات منحى سلمي، هذا التجاذب بين التيارات الثلاث ولد سؤال من يحكم من؟ ومن يظلم من؟ ومن يقتل من؟ ومن البريء ومن الظالم؟ ومن له حق السلطة ومن له حق تحقيق العدالة، وهل هناك مذنب فعلا؟

النظام السياسي يعتبر أن بيده السلطة وأن له حق الحكم وحق التسيير وهو المجال المقصود من طرف المتطرفين، هؤلاء يرون بأن السلطة هي سبب الكفر وسبب خروج الناس من الملة فراحوا يدمرون كل ما هو جميل ويقتلون كل ما هو بريء، أما الشعب فهو الضحية، لغياب الإنسانية.

استطاع الروائي أن يحول فضاء روايته إلى جملة من الإيديولوجيات المتصارعة مختزلة بأفعال وأقوال شخصيات كل التيارات، حيث يقدم كل طرف مبادئه وبرنامجه الإيديولوجي في إطار مواجهة الآخر و قيامه بالتصدي.

وعلى هذا رصدت الرواية كل أشكال التشتت والضياع الفكري، إذ استظهر لنا الروائي الشخصية المتطرفة وهي تهدد بالحكم السائد وتنادي بسقوطه" لا دولة إلا دولة الإيمان تسقط دولة الطغيان "(الحبيب السايح، 2008: 123). وقد رأوا أنه يجب قيام دولة مسلمة تحكم بما جاء به القرآن الكريم من أحكام ونصوص، فهو الميثاق والدستور الواجب العمل به وأتباعه، لذا لابد" أن يكون القرآن الكريم المحور الأساس للحياة السياسية، المرجع الواحد والوحيد لشرعية الدولة، كما أنهم يتوافقون كلهم على إسقاط النظام القائم "(شريف حبيلة، 2010: 123)، وهذا ما أشار إليه المتن الروائي من خلال العرض لمختلف المقاطع السردية، التي بينت صورة الشخصيات المتطرفة بعد أن احتلت منصب القوة باسم الشرعية والأحقية في التغيير، وأوضحت علاقة الرفض القطعي، بينها وبين السلطة.

وقد اتضح جليا أن الصراع واضح بين المتطرفين والسلطة واختلاف المرامي والمقاصد والاتجاهات الفكرية كذلك بارز، إذ أظهر المتطرفون عداءهم لكل ما هو سياسي، وشنوا حملات تقتيل في حق المتربصين بالخدمة العسكرية حيث "اغتيل أول فتى لهم لم يكمل طريق عودته من الخدمة العسكرية إلى بيتهم" (الحبيب السايح، 2008: 124) كما قام لحول وجماعته بذبح ابن السيد بلخير بدم بارد حينما كان عائدا" في إجازة عسكرية بشوق إلى أهله، وكأنه لم يكن يوما جاره ولا صديق طفولته "(الحبيب السايح، 2008: 124).

خلاصة:

يمكن القول بأن الكاتب الحبيب السائح حمل إلى الرواية الجزائرية خطابا نقديا، عالج من خلاله:

- ✓ ظاهرة العنف وشخصية المتطرف الديني، ليقارب بين الفن الروائي من جهة وبين الواقع من جهة ثانية.
- ✓ استطاع عبر التشكيل السردي والتعبير اللساني أن يحاور بين الوعي الأدبي والوعي الاجتماعي، وهذا يمنح القارئ اللذة والمتعة ويحوله من مستوى القراءة البسيطة إلى مستوى القراءة النقدية المحايثة، كما جعله نتاجا فكريا جديدا.
- ✓ الرواية رصدت أشكال التشتت والضياع الفكري.
- ✓ الرواية فضاء من الإيديولوجيات المتصارعة مختزلة بأفعال وأقوال شخصيات كل التيارات.
- ✓ اللباس يعبر عن ثقافة كل شعب، ولكن لا يعكس طريقة التفكير، فمن الخطأ الحكم على الناس انطلاقا مم يرتدون.

قائمة المراجع:

-الحبيب السائح، 2008، **مذنبون لون دمهم في كفي**، ط(1)، دار الحكمة، الجزائر.

-حميد لحميداني، 1990، **النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي**، ط(1)، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان.

-سماح بن خروف، 2011 -2012، **الاغتراب في رواية كراف الخطايا لعبد الله عيسى لحيلح**، إشراف: محمد زرمان، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر باتنة.

-شريف حبيلة، 2010، **الرواية والعنف**، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، ط(1)، عالم الكتب الحديث، إربد -الأردن.

-عامر مخلوف، 2000، **الرواية والتحولات في الجزائر**، دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية، دط، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

-عبد الوهاب بوشليخة، 2003 -2004، **إشكالية الدين الحساسية، الجنس في الرواية المغاربية من 1970 -1990** إشراف: بوجمعة بريعيو، قسم الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار عنابة.

-علي حرب، 2010، **الإنسان الأدنى أمراض الدين وأعطال الحداثة**، ط(2)، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر، بيروت.

-علي منصوري، 2008 -2009، **البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في الأدب الحديث، تخصص أدب حديث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخض باتنة.

-ياسمينة خضراء، 2012، **خرافات المولى**، تر: محمد ساري، د. ط، دار سيريا، المغرب.